أفغانستان تجربة (خلابة)

ذُكر في سيرتك الذاتية أنك أحد من ذهب إلى أفغانستان قبل نهاية التسعينيات الميلادية، ما هي القصة؟

- التجربة الأفغانية تجربة خلابة، يصعب الحديث عنها واختزالها بعد مضي أكثر من عقد عليها، ولكن باختصار كان عمري حينها ١٨ عاماً وكنت طالباً في الصف الثاني الثانوي في مدرسة تحفيظ القرآن الكريم في عليشة، وكان المجتمع في تلك الحقبة عام ١٤٠٨هـ يعج بثقافة «الجهاد» المدعوم دولياً؛ لأن المعتدي كان نظاماً شيوعياً أحمق يرغب في فرض المبادئ الشيوعية على الجميع بالحديد والنار، قبل أن أذهب كنت أقرأ وأتابع مجلة الجهاد، والبنيان المرصوص التي كانت تتصدر أرفف المكتبات والبقالات، وخطب الجمعة التي كانت تتحدث عن الجهاد والمجاهدين، فقررت بعد الانتهاء من اختبارات نصف العام الذهاب لأفغانستان للجهاد بعد موافقة والدتي -يحفظها الله- تحت ضغط وإلحاح، وكانت الجبهات هناك تعج بالجماعات، فوقع اختياري على الشيخ جميل قبل أن أذهب، وبالفعل تم استقبالنا من جانبه في مطار إسلام

آباد، وأذكر أنني من شـــدة حماستي كدت أمزق جواز سفري، حتى تكون رحلة بلا عودة ولكن من رحمة الله تعالى أنني لم أفعل ذلك، بعد ذلك تم اســـتقبالنا في دار الضيافة هناك، ثم ذهبنا في اليوم المقبل إلى المعسكرات في كونار.

ما هو أول شيء تدربتم عليه؟

- في البداية يتم تدريبنا على اللياقة البدنية، واســـتخدام الأسلحة، وكيفية الدخول للجبهات، والحق يقال كان معســـكر الشـــيخ جميل مميـــزاً من حيث الانضباط والتدريب المتلازم مع العلم الشـــرعي، وكان حريصاً على عدم الدخول في نقاشات حول تكفير الحكام أو شيء من هذا القبيل.

وآخر ســـلاح تدربت عليه فرقتـــي، كان مدفع ٧٥ وهو مضاد للدروع، أما أنا فكان تركيزي على اســـتخدام الرشاش؛ لأنه السلاح المرافق لك دائماً هناك.

كم استغرق التدريب؟

- لـــم يدم طويلاً وأعتقد أنه اســـتمر قرابة الشـــهر، ثـــم انتقلنا من المعســـكر إلى الجبهة، ولكن في تلك المدة لـــم تكن هناك مواجهة، وإنما قصف متبادل بين مواقعنا ومواقع الشـــيوعيين؛ لأن المواجهة كانت تحتاج إلى تخطيط، وإعداد، وجهد مادي وبدني.

قلت هذا ليس مكاني!

وماذا بعد؟

- انتقلت بعد ذلك إلى المرحلة الثانية التي كانت مرحلة الرباط والترصد، وخدمة المجاهدين في الجبهة، وحفظ القرآن وتعليمه، وأكثر ما كنا نخشاه المنافقون، وبعدها قرب انتهاء الإجازة المدرسية عدت لإكمال دراستي، ولما أنهيت الاختبارات النهائية عدت إلى أفغانستان من جديد، ولكن ما إن وصلنا حتى بلغنا أن صدام احتل الكويت وأن أسامة بن لادن يستنفر الشباب للدفاع عن الوطن، فعدنا مباشرة مع من عاد، ولكننا لم نجد أي تنسيق فعاد كل منا إلى منزله، ولم أغادر المملكة إلا بعد انتهاء الأزمة، وعدتُ إلى أفغانستان وكانت المرة الأخيرة؛ لأننا حين عدنا كانت هناك فتنة بين الشيخ جميل -رحمه الله- وبين بعض قادة الجهاد في أفغانستان، وعلى رأسهم قلب الدين حكمت يار.

وكان من المؤسف أن نضطر إلى تحويل الأسلحة من مواجهة الشيوعيين إلى مواجهة مسلمين، وعندها وصلتُ إلى قناعة بأن هذا ليس مكاني، وكانت هناك مفاوضات لإخراج المجاهدين العرب

إلى باكستان، أو إلى جبهات أخرى أو إلى بلدانهم، وكنت ضمن أول مجموعة خرجت من أفغانستان إلى أوطانها، وقبل أن نخرج من الحصار كان الشيخ جميل قد قتل، وبعد تركنا أفغانستان بستة أشهر تقريباً سقطت كابول.

لماذا طابت نفسك بترك الجهاد في ذلك الوقت، وقد ذهبت في أشد الحماسة إليه؟

- لأنني كنت أخشى أن أدخل في فتنة أقتل فيها مسلماً، ولا شك أن مقتل الشيخ جميل أيضاً كان حدثاً جللاً، ولكن لأننا كنا محاصرين في الجبهة من جانب كتائب حكمت يار، ولكثرة القتلى بيننا ولشدة الضغط الذي نعيشه، استقبلنا خبر اغتياله ببرود.

وكيف انجلى الحصار؟

- انجلى الحصار بعملية صلح تدخل فيها السفير السعودي وبعض المشايخ وطلبة العلم وبعض المسؤولين في الأحزاب، كما سمعت أن أسامة بن لادن كان طرفاً فيها أيضاً، وكان الاتفاق على الانسحاب المبدئي للعرب، فوجدنا فرصة، وطلّقنا تلك الحقبة بالثلاث!

ولكن هذا موقف تعرض له الكثيرون، فبقوا حتى فتحت كابل وبعد ذلك... ما الذي دفعك إلى الخروج أنت... أهزمت نفسياً؟

- قررت الترك نهائياً، لأن الصورة المثالية للجهاد بالنسبة إليّ تغيرت، ولن تفلح أي صورة أخرى في إعادة رسمها، وحين عدنا كنا ننصح

من جانب المشايخ بعدم الحديث عما تعرضنا له هناك، حرصاً على جمع الصف، ولكنني في الحقيقة لم ألتزم بهذا، لأنني تعرضت لظلم، ورأيت أن توضيح الحق للناس واجب، فمضيت أخطب في المساجد، وأتحدث إلى الناس في المجالس، لأبين لهم أن الجهاد الأفغاني ليس مثالياً كما يتصور بعض الناس.

ألم يَرِدْ إلى ذهنك أنها مغادرة قد تكون فراراً من الزحف؟

- لا، فأنا لم أفر من الزحف، وإنما أجبرت على الانسحاب والخروج من الجبهة، وغادرت أفغانستان بالكلية، لمبرر معتبر شرعاً، وهو أن الجهاد الذي جئنا للقيام به ليس موجوداً على أرض الواقع، مصالح وحسابات، واغتيالات بين المسلمين!

وصلتَ السعودية، ثم ماذا؟

- نعم، وصلت، ولو مزقت جوازي كما هممت أن أفعل لكانت العودة شائكة، ولكني عدت بسهولة وأكملت دراستي، ثم قامت بعدها حرب البوسنة والهرسك، وكدت أذهب، ولكنني قابلت أحد الإخوة السابقين في أفغانستان، وكان عائداً من هناك، فقال لي: «أنصحك بعدم الذهاب؛ لأنك سترى في البوسنة أشد مما رأيته في أفغانستان» فاعتبرت بكلامه ولم أذهب. وبعد تخرجي في الثانوية تزوجت وأصبح لدي نوع من الاستقرار، وإن كان الخروج للقتال يلازم فكري من حين إلى آخر في ظل الجبهات المشتعلة في

الشيشـــان، والبوسنة، وكشـــمير إلا أن الإنسان كلما تقدم به العمر وازداد ارتباطـــا بالأســـرة والمجتمع أدرك أن هنـــاك جهاداً من نوع آخر، وربما كان أشد ضراوة من ذلك الجهاد.

هل يعني هذا أن الزواج يساعد على طرد هاجس الجهاد لدى الشباب؟

- لا شـــك في أن الزواج ســـكن واســـتقرار، وحين يلقى الإنسان من يسكن إليه يكون هذا مدعاة أكبر للاستقرار والبقاء!

وماذا عن النفسَ الجهادي بعد أحداث ١١ سبتمبر؟

- بعـــد أحداث ١١ ســـبتمبر كنت أنصح من يأتي لاستشـــارتي بعدم الذهاب؛ شـــفقة عليه من بطـــش الرد الأميركي على أفغانســـتان بسبب ضرب أبراجها.

وبعد غزو العراق؟

- أعتقـــد أن الوضع في العراق أعقـــد بكثير، لأن المواجهة فيه كانت واضحة، وكانـــت هناك تهديدات مبكرة وتحضير، وكنت أنصح من يستشـــيرني بعدم الذهاب أيضاً، وقلت هذا في الساحات وبعضهم رماني بالتثبيط.

بما أن فكرة الجهاد ما زالت قائمة، ولكنها محاطة بالضبابية... لماذا لا يزال بعض الناس ينقر فوق هذا الجرس؟

- مـــن يدّعون الجهاد علـــى فريقين: فريق يتهم المؤسســـات الدينية الإســـلامية بالقصور فـــي نصرة قضايا الأمة ولـــو ببيان، وبالتالي يـــرى أن عليه نصرة هذه القضايا بالخـــروج للقتال، وآخر يرى أن المسلمين نالوا من الذل والقهر والقتل ما نالوا، فيحمل سلاحه ليس من أجل الموت في سبيل الله، ولكن للانتقام من الغزاة، وهناك من ذهب إلى العراق – مثلاً – زاعماً أنه يجاهد وهو لا يصلي!

التحريـض على الجهاد بهذه الصورة دفع بكثير مـن المتحمسـين إلـى التخريـب فـي أوطانهـم، والقيـام بالعمليـات الإرهابيـة، بصفتك عشـت هـذه التجربة ورأيـت عدم جدواهـا... كيف ترى إمكان التوفيق في هذا الأمر؟

- الإشـــكالية أن قناعاتك أو قناعات الشـــيخ أو المربي لا تستطيع أن تغير شـــيئاً أمام ســـيل العاطفة لدى بعض الناس، وفي واقع الأمر يصعب على الإنســـان الذي يشـــاهد المذابح علـــى التلفاز وتمريغ الكرامة في سجن أبو غريب أن يتعامل بعقل.

أفغانستان أصبحت عاراً يلاحقنا!

كنت شخصاً له تجربة جهادية... كيف تنظر للأحداث الإرهابية التي بدأت ولم تنته بعد في السعودية؟

- بالنسبة إليّ أنا ضد العنف جملة وتفصيلاً، وبخاصة ما كان على أرض الوطن، لا سيما أن عندنا من المشكلات ما يغنينا عن فتح باب آخر لها، كما أنه ذهب في هذه العمليات أشخاص مسلمون، فضلاً عن الأجانب المستأمنين والمعاهدين، إضافة إلى تزعزع الأمن في البلاد، وبلا شك كان لها أثر سلبي من حيث إساءة هذه العمليات للجهاد في حد ذاته، وللمجاهدين السابقين، ولأفغانستان التي أصبحت عاراً يتبرأ منه الجميع.

إذن... هل تعتقد أن السفر إلى خارج البلاد لأي جهة كانت بدافع الجهاد فكرة غير مناسبة؟

- ما رأيناه حتى الساعة يثبت أنها تجارب فاشلة، والإشكالية أن الوجود السعودي الجهادي بالذات غير مرحب به إطلاقاً، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا الكلام.

إذن فلماذا الإصرار على هذه الفكرة مع أنها أثبتت فشلها كما قلت؟

- لأن هذا نوع من اتباع رغبات النفس التي لا ينفك عنها الإنسان حتى يقتل، أو يشحن إلى إحدى المعتقلات!

ما دعوتك لشباب الوطن، وأنت أحد الذين سبقوهم إلى الجهاد؟

- أنا أدعو أي إنسان قبل أن يغامر أن يتقي الله في نفسه أولاً، ثم في أهل بيته من والدين وزوجة وأولاد ثانياً، ثم يتقي الله في وطنه ولا يأخذ المسألة بعاطفة أو هوى.

هل تتوقع أن تخرج من المملكة في يوم من الأيام للجهاد مرة أخرى بعد التجارب الماضية؟

- لكل قضية أركانها وأبعادها، وفي الوقت الحاضر هذه الفكرة لا تراودني بتاتاً؛ لأنني أعتقد أن العمل الخيري أو الدعوي، أو الجهادي غير محصور في القتال، فهو عمل واسع المجالات في الدين.

قراري غير خاضع للمساومة

أدرك أن خبـــر اعتزالي الســـاحة ســـيكون وقعه صعبـــاً وحاملاً لتفسيرات سيئة لدى بعض الزملاء في المنتدى الذي كنت أكتب فيه، إلا أن فرح والدتي وزوجتي به وقناعتي به ســـيعوضني عن أي جفاء قد أتعرض إليه.

والذي أتوقعه أن ردود أفعال الناس ســـتتباين بحســـب أخلاقهم وأفكارهم، وســـتكون هناك اتهامات، وقبول ورفض، وبالنسبة إليّ لا أخشى من رد فعل أحد، ليس في الساحة فقط، بل حتى في المجتمع؛ لأن هذا قرار شـــخصي اتخذته بعد تفكير طويل ومراقبة ودفع ثمن تلك الكتابات التي خسرت بها الكثير والكثير. وفي كل الأحوال، هذه قناعتي وليســـت خاضعة للمساومة أو لإغراء الآخرين، ومن يعرفني عن كثب فسيدرك أنني لا أغير قناعاتي لإرضاء الناس.

أما رسالتي الأخيرة لكُتاب الإنترنت فهي: ينبغي على الإنسان ألا يقوّم الأشـــخاص وفق موقف يراه أو يتخذه، وألا يتهم أحداً في نيته أو مبادئه أو عقيدته، بســـبب وجهـــة نظر يتبناها، ولكن ينبغي تغليب جانب حســـن الظن بالناس دائماً. وثانياً: أقول للإخوة كُتاب الساحة

ينبغـــي التعاطي بموضوعية مـــع الأحداث، وعدم التســـرع، وضبط النفس، وتقوى اللـــه تعالى في إصدار الأحكام، والجانب الأهم الذي نغفل عنه جميعاً هو جانب محاسبة النفس، لذلك ينبغي أن يكون لدى الإنســـان أرشيف يحوي جميع كتاباته؛ حتى يعود إليها من الحين إلى الآخر ويقوّم نفســـه، فإن كان على صـــواب عزّزه، وإن كان على خطأ أو تقصيـــر، وهو الغالب فليحاول أن يصحح هذا الخطأ أو التقصير. (وقد حدث ما توقع).